



شیخ الإسلام: ابن تیمیة

ولد بحران سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق، وكانوا قد خرجوا من بلاد حرأن مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين.

طلبه للعلم

سمع الحديث من أئمته في دمشق، وسمع "مسند" أحمد مرات، و"معجم" الطبراني الكبير، والكتب الكبار والأجزاء. وعُني بالحديث، وقرأ بنفسه الكثير، ولازم السمع مدة سنتين، ونسخ وانتقى وكتب الطياق والأثبات، وتعلم الخط والحساب في المكتب، واشتغل بالعلوم وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه، وسylan ذهنه وقوته حافظته، وسرعة إدراكه. ذلك ما قاله من ترجموا له في نشأته.

أخلاقه

أما أخلاقه فقالوا:

إنه نشأ في تصونٌ تام، وعفافٌ وتأله، واقتصر في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خلقاً صالحًا، برأ بوالديه تقىً ورعاً عابداً ناسكاً صواماً فواماً، ذاكراً لله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والفضايا، وفقاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، "فارغاً من شهوات المأكل والملابس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدریسه، عرض عليه منصب قاضي القضاة ومشيخة الشیوخ فلم يقبل". وقبل وظائف والده في التدریس وله إحدى وعشرون سنة.

وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم، ودرس هو بعده، فاشتهر أمره وبَعْدَ صيته في العالم، وما أتى له ثلاثون سنة، حتى كان من أعظم علماء عصره، بل أعظم عالم في عصره، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال به، ولا تكل من البحث، وقل أن يدخل في باب من أبواب العلوم إلا وفتح له من ذلك الباب أبواب، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حذق أهله.

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره، فيتكلم ويناظر ويفهم الكبار، ويأتي بما يحار منه أعيان البلد، وشرع في الجمع والتأليف ولو نحو سبع عشرة سنة.

قال الحافظ الهمجي:

– كان إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا من مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوب إليه. وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين.

وقالوا فيه: وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد ما يقوله من غير توقف ولا تلغم، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح.

وانتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والأناة، والجلالة، والمهابة،، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق، والأمانة، والعفة، والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهاج إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان رحمة الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجيًّا في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، طنَّتْ بذكره الأمصار، وضَنَّتْ بمثله الأعصار.

وقال الذهبي:

– إنه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه... ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسرَ كتاب الله تعالى مدة سنتين من صدره أيام الجمع، وكان يتقد ذكاءً، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مئتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليه المنتهي، وحفظه للحديث ورجاله وصححه وسقمه مما لا يُلْحَقُ فيه، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين، فضلاً عن مذاهب الأربعة، فليس فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام فلا أعلم له فيه مثيلاً، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربته قوية جداً، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب.

قال: فإذا ذُكر التفسير، فهو حامل لوائه، وإن عُدَّ الفقهاء، فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، واستزيد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا.

وإن سُمِّيَ المتكلمون، فهو فَرُدُّهُمْ وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلسفه، فَلَسَّهُمْ وبخسهم وهتك أستارهم، وكشف عوارهم.

وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة.
وهو أعظم من أن تصفه كلمي، أو تبينه إشارة قلمي.

وقال في مكان آخر:

– وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والمسقى، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه،

وإليه المنتهي في عزوه إلى "الكتب الستة" و"المسند" بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فيه من بحر، وغيره يغترف من السواقي.

وقال أيضاً: كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه.

قال: وما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه، لأن السنة نصب عينيه، وعلى طرف لسانه، بعبارة رشيقه وعين مفتوحة..

ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أذيت من الفريقين من أصحابه وأصداده..

وكان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمه أذنيه، لأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت فصيحاً، سريع القراءة، تعترىه حدة لكن يقهرها بالحلم...

وقال: تعترىه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس.

كتب الذهبي إلى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه:

وأما قول سيدى في الشيخ تقى الدين، فالملوك يتحقق كبر قدره، وزخارف بحره، وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده وبلغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكثر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك بالأخذ الأوفي، وغراية مثله في هذا الزمان، بل من أزمان.

وقال ابن سيد الناس:

ـ إنه برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رأه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

محنة ابن تيمية

بدأت محنة شيخ الإسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم، فناقوشوه وكفروه وبدعوه، واعتقله الولاة وغربوه.

وكان منذ سنة تسع وسبعين و(ستمائة) ظهرت شخصيته السياسية في البلاد، وبدأ تعویل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبه (غازان) فقام بأعباء الأمر بنفسه، واجتمع بنائبه وجرؤ على المغول وتوجه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدولة وحضرهم على الجهاد، ثم عاد بعد أيام إلى دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود في وقعة (شقب) سنة اثنين وسبعين واجتماعه بال الخليفة والسلطان، وأرباب الحل والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعين لقتال الكسروانيين واستئصال شأفتهم.

ثم مناظرته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضور نائب السلطنة الأفروم، وظهوره عليهم بالحجارة والبيان، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومكرهين.

ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة إلى الديار المصرية، في صحبة قاضي القضاة الشافعية، وعقد لهم له مجلساً حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم جبسه في الجب بقلعة الجبل، ومعه أخواه ستة ونصفاً.

ثم إخراجه بعد ذلك، وعقد لهم له مجلساً ظهر فيه على خصومه، ثم عقد لهم له مجلساً سنة سبع لكلمه في طريقة الاتحادية ثم الأمر بتسفيره إلى الشام على البريد، ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، ثم إخراجه منه وتوجيهه إلى الإسكندرية، وجعله في برج، حبس فيه ثمانية أشهر.

ثم توجهه إلى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء وإكرامه له إكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض أعدائه، وامتناع الشيخ عن ذلك.

ثم سكناه القاهرة، ثم توجهه إلى الشام، ثم ملأ ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق.

إلى أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق، فأشار عليه بعض القضاة بترك الإفتاء بها في سنة ثمانية عشرة (وسبعين)، فقبل إشارته دفعاً للفتنة، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى بها، ثم عاد الشيخ إلى الإفتاء بها وقال:

"لا يسعني كتمان العلم"

وبقي كذلك مدة إلى أن حبسه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم. إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرجال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وكان أجاب به من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليه بسبب ذلك، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين يجعله في القلعة، فأخلت له قاعة حسنة وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وأآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً، وكتب عقب ذلك بضم. وكان إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم، وبقيأشهراً على ذلك، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين.

* * *

هذا مجلد ما قيل في حال شيخ الإسلام، ومع ما حاول أعداؤه أن ينفصوا عيشه، دأب في كل زمان على التأليف، فألف ثلاثة مجلد وكلها في الشرع، وفي حل مسائل عويصة من الدين تقرأ فيما وصلنا منها مثلاً من علمه النفيسي، وعمله الذي عقّمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله.

كثُرت تأليفه، لأنَّه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنّة وما دُونَ في شروحهما، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعده كثرة محفوظه، وفيض خاطره، وسعة بيانيه على تدوين حفائق لم يكتب لها في موضعه، ولو لم يكن له إلا "منهاج السنّة" لكانه على الأيام فخراً لا يلي، وفيه مثال من علمه وقوه حجته، ومعرفته بالملل والنحل، وإذا قلنا: إنه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنّة، لصدقنا كل منصف من أهل القبلة.

وكتاب "منهاج السنّة" من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده المواقفون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل.

ولو أدعينا: أنه لم يأت عالم (مثله) يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويوماً يوماً ما قدر أحد على رد دعوانا.

رد على المعتزلة، وعلى الجهمية، وعلى الشيعة وعلى الفلاسفة، وعلى غيرهم. فجاء بالعجب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره، وشدة بحثه، فما كُتب لإمام من الأئمة في عصره وبعد عصره أن ينافقه ويرد أقواله. وعلى كثرة ما حرص الشافعية للتتفوق على هذا الحنفي، وإنقاذ العلماء بفتاويهم وتزوييف فتاويه، ما كانوا معه إلا كالأطفال إمام الرجال، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي، وما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان. اعتقلوه في القاهرة والإسكندريةأشهراً لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ، وما حالوا دون إعجاب المنصفين من

العلماء به وقول الحق فيه، ولا دون تقدس الأمة له يوم موته، وهي التي عرفته سباقاً إلى كل خير يقصد منه صلاح دنياه ودينه، وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم، وأن الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره.

وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوتٌ مثلُ صوته، في إحقاق الحق، ونصرة سلطان الإسلام. ونسبة قوم إلى أنه يسعى في الإمامة الكبرى، فإنه كان يلهم بذكر ابن تومرت ويطريه، فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه. ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلّى عن الأسرى من النصارى واليهود، وقال: "إنهم ذمتنا ولا بد من إرجاعهم إلى ديارهم".

وكم له من مثل هذه الحسنات التي أصبحت كأنها قواعد الشرع والسياسة، لا يستغنى عنها خليفة ولا سلطان. إن استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين، وفي غير ذلك من البدع التي أقرّوها، والشريعة تنكرها إنكاراً ظاهراً!! كما يفهم من أي الكتاب العزيز، وهدي الصحابة والتابعين والعلماء العاملين، واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم، في تلك المعركة الشديدة. قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرین، وبقيت الأمة على إقرار الخرافات والبدع، إلى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة، وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى، استملاوا بها العوام ومزجواها بالشريعة الأصلية، رغم أنوف الخواص فركبوا عار الأبد، ولعنوا بما بدّلوا وحرّفوا، وهو لم يأت ببدع، وهم سلّموا بكل البدع، فكان العالم العامل حقاً، وكانوا عبدة أوهام وضلالات.. أراد شرعاً نقياً من الأدران، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية، لأنهم يقصدون بمناقشتهم الظهور، وكسب قلوب الغوغاء على أي حال.

لو عمّت دعوة ابن تيمية - ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الإسلامية ولكنها عنده كانت حارة، وعند غيره فاترة - لسلم هذا الدين من تخريف المخربين على الدهر، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعو لغير الله، ولا ضريحاً تشد إليه الرحال بما يخالف الشرع، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك، ولسلامة العقول لا للخيال والخيال.

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفاً بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء، وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي، وعيثاً حاول بعض الشافعية والمالكية أن يسلّموه للعامة عليهم يقتلونه فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهراً في سجن، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره. وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً، وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء، وحثه على أن يقتيه في قتل بعضهم، فأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له:

- إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعضاً منهم مثلهم.

فقال له:

- إنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً.

فقال الشیخ:

- من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، أنا لا أنتصر لنفسي.

وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول:

- ما رأينا مثل ابن تيمية.. حرّضنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدر علينا، فصفح عنا وحاجج عنا.

فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون:

- يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإنما فقد ثبت كفره.

ونحن نقول:

- إن هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه، ثم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم، وهو كان يهتم للأخرى فقط، وشتان بين المطلبين.

كان يهتم لنظر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه، وهمهم أن يرضي عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستمليوا العامة فيقبلوا أيديهم.

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان:

- لو لم يبق فيها إلا حجر واحد، فلا تسلّمهم ذلك إن استطعت.

فسلمت القلعة من أذى التتار، وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلوا عليهم آيات الجهاد والرباط.

وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب، وكان يعد المسلمين بالنصر هذه المرة، ويفكك كلامه في ذلك حتى نصروا على عدوهم. وفي قتال الجرديةن والكسروانيين، أبان أيضًا عن سياسة رشيدة، وأرجع بعض الناشزرين من أهلها إلى الإسلام. من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية أن ينالوا بها منه: مسألة شد الرحال إلى قبور الصالحين وغيرهم. قال ابن كثير:

- إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء، والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور.

وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى.

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها، ويندب إليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا، ولا قال: إنها معصية، لا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاحد قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

"زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة".

وثار عليه مرة جماعة من الحسدة، وشكوا منه أن يقيم الحدود، ويعزز، ويحلق الرؤوس أيضًا، وتكلم هو فيمن يشكوا منه ذلك وبين خطأهم.

وراح مرة في ثلاثة من أصحابه ومعهم حجّارون وأمرهم بقطع صخرة، كانت بنهر قلوط بدمشق تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيمًا.

وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف.

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي، ويحاول قتله - والتعزير عند المالكية القتل - ولا تشتفى نفوس بعض العلماء والسياسيين حتى ينادي بدمشق:

من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة.

قال ابن كثير:

- وبهذا، وأمثاله حسدوه وأبزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه فحسد على ذلك وعودي، ولم يصلوا إليه بمكروه، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه.

قال: ولم يزل الشيخ ملازماً الاشتغال في العلوم، ونشر العلم، وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية.

في بعض الأحكام يفتى بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربع، وفي بعضها يفتى بخلافهم وبخلاف المشهور

في مذاهبهم.

وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها، وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي.
قال الصلاح الصفدي: كان كثيراً ما ينشدني:
تموتُ النفوس بأوصابها ولم يدرِّ عُوادُها ما بها

وما أنسفتْ مُهجةً تشتكى أذاها إلى غير أحبابها

وأنشد على لسان القراء (جماعة الطرق):

والله ما فَقُرُنَا اخْتِيَارٌ وإنما فَقَرَنَا اضطراَرٌ

جَمَاعَةُ كُلُّنَا كُسَالٍ وَأَكْلُنَا مَا لَهُ عِيَارٌ

تَسْمُعُ مِنَا إِذَا اجْتَمَعْنَا حَقْيَقَةُ كُلِّهَا فَشَارٌ

المصدر: رابطة أدباء الشام

المصادر: